OPEN ACCESS
Received: 16 -04 -2026
Accepted: 28- 06-2026

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

The Sequential Order of the Quranic Surahs According to Ibn al-Zubayr al-Gharnati: A Study of Coherence and Structural Unity

Dr. Manal Mebtee Al-Masoudi*
mmhozali@uqu.edu.sa

Abstract

This study investigates the sequential arrangement of the Quranic surahs in the thought of Ibn al-Zubayr al-Gharnati, focusing on its role in demonstrating textual coherence and the structural unity of the Quran. Drawing on his seminal work *Al-Burhan fi Tartib Suwar al-Quran*, the research identifies the methodological principles underlying his interpretation of the relationships between successive surahs. Employing an analytical approach grounded in the science of *munasabah* (textual coherence), the study examines how overarching thematic objectives, major textual divisions, linguistic and stylistic connections, and the analogy between the arrangement of verses and the arrangement of surahs contribute to a coherent organizational system. The findings reveal that Ibn al-Zubayr regarded the order of the Quranic surahs as a carefully constructed structure governed by consistent methodological principles rather than a sequence based solely on rhetorical observations. His approach elevates the science of *munasabah* from the study of isolated rhetorical subtleties to a comprehensive framework for explaining the structural organization of the Quran. The study concludes that Ibn al-Zubayr's methodology provides an integrated vision of Quranic composition and establishes his important contribution to the scholarly understanding of the Quran's textual unity and coherence.

Keywords: Arrangement of the Surahs, Linguistic Links, Stylistic Links, Methodological Principles, Coherence of the Surahs.

* Associate Professor of Quranic Rhetoric, Department of Literature, Criticism, and Rhetoric, College of Arabic Language and Literature, Umm Al-Qura University, Saudi Arabia.

Cite this article as: Al-Masoudi, M. M. (2026). The Sequential Order of the Quranic Surahs According to Ibn al-Zubayr al-Gharnati: A Study of Coherence and Structural Unity, *Arts for Linguistic & Literary Studies*, *8*(3): 277 -299. https://doi.org/10.53286/8dp2vg76

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2026/04/16م
تاريخ القبول: 2026/06/28م

النسق الترتيبي بين سور القرآن الكريم عند ابن الزبير الغرناطي: دراسة في التناسب ووحدة البناء

د. منال مبطي المسعودي*
mmhozali@uqu.edu.sa

ملخص:

يعمد هذا البحث إلى الكشف عن بلاغة النسق الترتيبي بين سور القرآن الكريم، والأصول المنهجية التي اعتمدها الإمام ابن الزبير الغرناطي (ت: 708هـ) في بناء النسق الترتيبي بين سور القرآن الكريم من خلال كتابه (البرهان في ترتيب سور القرآن)، واستجلاء دورها في تفسير العلاقات بين السور وإبراز وحدة البناء القرآني. وانطلق البحث من إشكالية تتمثل في تحديد الأسس المنهجية التي احتكم إليها في ترتيب السور، وبيان أنماط العلاقات ووجوه الترتيب التي تحقق الانسجام بين السور. وتم تقسيمه على مقدمة وتمهيد ومبحثين ونتائج. تطرق التمهيد إلى مفهوم النسق والترتيب وعلاقتهما بعلم التناسب، وتطرق المبحث الأول إلى منهج ابن الزبير الغرناطي في دراسة الترتيب بين السور المتوالية، في حين تطرق المبحث الثاني إلى وجوه التعالق والارتباط بين السور عند الغرناطي، وقد خلص إلى أن الغرناطي ينظر إلى ترتيب السور بوصفه نسقًا محكمًا يقوم على جملة من الأصول المنهجية، من أبرزها: مراعاة المقاصد الكلية للسور، والاحتكام إلى المقاطع الكبرى، وإعمال الروابط اللغوية والأسلوبية، وقياس النسق الخارجي بين السور على النسق الداخلي بين الآيات، وأكدت الدراسة أن هذه الأصول تكشف عن رؤية منهجية متكاملة تجعل علم المناسبة أداةً للكشف عن قانون انتظام السور، لا مجرد الدلالة على لطائف وأسرار معنوية، وهذا يبرز مكانة ابن الزبير الغرناطي في تأصيل النظر إلى وحدة البناء القرآني وتماسكه.

الكلمات المفتاحية: ترتيب السور، النسق، الروابط الأسلوبية، الأصول المنهجية، أنماط التناسب.

* أستاذ البلاغة القرآنية المشارك، قسم الأدب والنقد والبلاغة، كلية اللغة العربية وآدابها- جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

للاقتباس: المسعودي، م. م. (2026). النسق الترتيبي بين سور القرآن الكريم عند ابن الزبير الغرناطي: دراسة في التناسب ووحدة البناء، *الآداب للدراسات اللغوية والأدبية*، *8*(3): 277- 299 https://doi.org/10.53286/8dp2vg76

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

المقدمة

إن القرآن الكريم يمثل المعجزة الخالدة التي أنزلها الله تعالى على نبيه محمد ﷺ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد، وقد اشتمل هذا الكتاب العزيز على خصائص كثيرة، من أبرزها نظمه المعجز وترتيبه الذي يتمثل في التناسب البديع بين آياته وسوره، فلا تجد اختلافًا ولا تفاوتًا في سبك هذا النظم الإلهي المحكم، مما جعل العلماء يولون دراسة جوانب هذا التناسب، وكشف أسراره، وإبراز حكمة ترتيبه عنايتهم الخاصة.

ولقد كان علم المناسبات من أجلّ العلوم التي اهتم بها المفسرون والبلاغيون، غير أن التأليف المستقل فيه كان نادرًا، وقد برز في هذا المضمار الإمام أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي الثقفي (ت 708هـ)، الذي ألّف كتابه الفريد (البرهان في ترتيب سور القرآن)، وكان محور كتابه: العناية ببيان أوجه الارتباط بين سور القرآن الكريم، وكشف العلاقات التي تجمع بينها، سواء على مستوى الجوار بين السور، أو على مستوى التناسب بين مفتتحها وخاتمتها، أو من حيث انتظامها في إطار المقاصد القرآنية الكبرى.

ويسعى هذا البحث إلى استجلاء النسق الترتيبي عند ابن الزبير الغرناطي، ودراسة أسسه النظرية، وتجلياته في بنية المصحف الشريف، مع الوقوف على معايير التناسب التي اعتمدها، وأثرها في إبراز وحدة البناء القرآني، وإظهار التناسق البديع الذي جعل من القرآن كتابًا واحدًا متكامل البناء، لا تنافر فيه ولا اختلاف، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82].

ويهدف هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1- التعريف بالإمام ابن الزبير الغرناطي، وبيان مكانته العلمية في الدراسات القرآنية، وإبراز دوره الريادي في تأسيس علم المناسبات بين سور القرآن الكريم.

2- الكشف عن الأسس النظرية التي قام عليها النسق الترتيبي عند ابن الزبير، وبيان مرتكزاته المنهجية في دراسة ترتيب سور القرآن الكريم، مع الوقوف على موقفه من قضية التوقيف والاجتهاد في ترتيب السور.

3- استجلاء أنماط التناسب بين السور التي اعتمدها ابن الزبير في كتابه البرهان في ترتيب سور القرآن، وتحديد أبرز صورها، وبيان كيفية توظيفها في تفسير ترتيب السور.

4 - دراسة تجليات النسق الترتيبي بين السور المتجاورة، والكشف عن أثره في بناء الوحدة النصية، من خلال بيان طبيعة العلاقات التي تربط كل سورة بما قبلها.

5- تحليل وحدة البناء بين السور في ضوء المقاصد القرآنية الكبرى، مع التركيز على المقاصد العقدية والتعبدية، وبيان كيفية تكامل السور في خدمة هذه المقاصد، من خلال نماذج تطبيقية من كتاب البرهان في ترتيب سور القرآن.

وتكمن أهمية البحث في عددٍ من الجوانب المنهجية والعلمية والتطبيقية، من أبرزها ما يلي:

1- إبراز جانب من جوانب الإعجاز القرآني المتمثل في ترتيب السور وتنسيقها، والكشف عن التناسب البديع بينها، و وحدة البناء مما يؤكد إحكام النظم القرآني ودقته.

2 -إبراز إسهامات علماء الأندلس في خدمة الدراسات القرآنية من خلال الدور الرائد للإمام ابن الزبير الغرناطي.

3 - دراسة كتاب البرهان في ترتيب سور القرآن دراسةً تحليلية؛ للكشف عن قيمته العلمية بوصفه من أوائل المؤلفات المستقلة في علم المناسبات، وبيان أثره في تطور هذا العلم.

4 - الكشف عن المعايير والمنهج الذي اعتمده ابن الزبير في دراسة ترتيب سور القرآن، وبيان ما تتضمنه من أسس علمية أصيلة، مع إبراز صلتها بالدراسات النصية الحديثة.

5 - بيان وحدة البناء القرآني وتماسكه، وإثبات أن ترتيب سور القرآن الكريم قائم على الحكمة والإحكام، من خلال نماذج تطبيقية تكشف عن العلاقات الدقيقة بين السور.

وتتمحور إشكالية هذا البحث حول التساؤل الرئيس الآتي:

ما حقيقة النسق الترتيبي بين سور القرآن الكريم عند ابن الزبير الغرناطي من خلال تطبيقه على سور القرآن الكريم؟ وما علاقات اتساق القرآن الكريم وترتيب سوره بعضها على بعض؟ وما الأسس النظرية والمنهجية التي قام عليها الكتاب؟

وينبثق عن هذا التساؤل الرئيس عددٌ من التساؤلات الفرعية، هي:

1- ما موقف ابن الزبير الغرناطي من قضية ترتيب السور بين التوقيف والاجتهاد؟ وما أثر هذا الموقف في تصوره للنسق الترتيبي والتناسب بين السور؟

2- ما معايير التناسب بين السور التي اعتمدها ابن الزبير في كتاب البرهان في ترتيب سور القرآن؟ وكيف تجلَّت هذه المعايير في تطبيقاته على سور القرآن الكريم؟

3- ما طبيعة العلاقة بين مفتتح السورة وخاتمتها عند ابن الزبير؟ وكيف يسهم ذلك في تحقيق التماسك الداخلي للسورة ووحدة بنائها؟

4- كيف تتكامل السور القرآنية في ضوء المقاصد القرآنية الكبرى عند ابن الزبير، ولا سيما المقاصد العقدية والقصصية والتربوية؟

ومن خلال معالجة هذه الإشكالية والإجابة عن تساؤلاتها، يتجلى لنا اتساق القرآن وبديع ترتيبه وإعجاز تأليفه، فحسب هذا البحث استجلاء الأسس النظرية والمرتكزات المنهجية الضابطة لدراسة التناسب بين السور، ورصد العلاقات بين سور القرآن الكريم، بما يبرز وحدة البناء القرآني وإحكام نظمه، ويكشف عن جانب من جوانب إعجازه البياني.

تعددت الدراسات السابقة التي تناولت التناسب بين سور القرآن الكريم وعلم المناسبات من جوانب متعددة، أهمها ما يلي:

1 – رشيد الحمداوي، وحدة النسق في السورة القرآنية: فوائدها وطرق دراستها، مجلة الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، مكة المكرمة – السعودية، العدد الثالث، جمادى الآخرة 1428هـ،

2 - محمد فاضل صالح السامرائي، منهج ابن الزبير الغرناطي في توجيه الفعلين المتقاربين في المعنى من خلال كتاب ملاك التأويل: دراسة تحليلية موازنة، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، الأردن، مجلد (15)، العدد (2)، سنة: 2019م.

2– عثمان بريحة، صور التناسب البلاغي في القرآن الكريم: بحث في أسرار الاقتران الدلالي من خلال تفسير (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) للإمام البقاعي، مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل، جامعة غليزان، الجزائر، المجلد (8)، العدد (1)، سنة: 2022م.

3 - حمد الله عبد الحكيم محمد حمد الله، بلاغة النسق الترتيبي في البيان القرآني: الانفطار والانشقاق أنموذجًا)، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، مصر، المجلد (33)، العدد (62)، عام: 2024م.

تلتقي هذه الدراسات مع البحث الحالي في اهتمامها بالكشف عن مظاهر التناسب في القرآن الكريم، وإبراز وحدة البناء والنسق في السور والآيات، كما تشترك معه في الإفادة من المناهج البلاغية والتحليلية في استجلاء العلاقات النصية والدلالية التي يقوم عليها النظم القرآني.

إلا أن هذا البحث يتميز عنها من عدة وجوه؛ إذ يتخذ النسق الترتيبي بين سور القرآن الكريم عند ابن الزبير الغرناطي موضوعًا رئيسًا للدراسة، مستقرئا النصوص المرتبطة بموضوع البحث في كتابه ملاك التأويل استقراءً شاملًا؛ للكشف عن الأسس والمعايير التي اعتمدها في بيان ترتيب السور، وربطها بوحدة البناء القرآني، في حين أن الدراسات السابقة تناولت موضوع التناسب بصفة عامة، أو اقتصرت على دراسة وحدة السورة، أو عالجت جانبًا جزئيًا من منهج ابن الزبير، كتوجيه الألفاظ المتقاربة في المعنى، أو تناولت جهود علماء آخرين كالبقاعي، أو طبقت مفهوم النسق على سور محددة دون الوقوف على التصور المتكامل لابن الزبير في النسق الترتيبي بين السور.

ومن ثم يسعى هذا البحث إلى سد هذه الثغرة العلمية من خلال إبراز منهج ابن الزبير الغرناطي في تفسير ترتيب سور القرآن الكريم، والكشف عن الصلة بين النسق الترتيبي ووحدة البناء والمقاصد القرآنية، بما يبرز إسهامه في تأسيس رؤية متكاملة للتناسب بين السور، ويضيف إلى الدراسات القرآنية دراسةً متخصصةً تجمع بين الاستقراء والتحليل والتقويم.

التمهيد

مفهوم النسق والترتيب وعلاقتهما بعلم التناسب

أولًا: مفهوم النسق لغة واصطلاحًا:

أ – النسق لغة: جاء في لسان العرب: "نسق: النَّسَقُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: مَا كَانَ عَلَى طَرِيقَةِ نِظام وَاحِدٍ، عامٌ فِي الأَشياء، وَقَدْ نَسَّقْتُه تَنْسِيقاً؛ وَيُخَفَّفُ. ابْنُ سِيدَهْ: نَسَقَ الشَّيْءَ يَنْسُقهُ نَسْقًا ونَسَّقه نظَّمه عَلَى السَّوَاءِ، وانْتَسَق هُوَ وتَناسَق، وَالِاسْمُ النَّسَقُ، وَقَدِ انْتَسَقت هَذِهِ الأَشياء بعضُها إِلَى بَعْضٍ أَي: تَنَسَّقَتْ. وَالنَّحْوِيُّونَ يُسَمُّونَ حُرُوفَ الْعَطْفِ حُرُوفَ النَّسَقِ لأَن الشَّيْءَ إِذَا عطفْت عَلَيْهِ شَيْئًا بَعْدَهُ جَرى مجْرَى وَاحِدًا" (ابن منظور، 1414: 10/ 352 – 353).

أما في الاصطلاح: فتتّسع دلالته وتتنوع ليشمل معاني متعدّدة تتجاوز حدوده اللغوية إلى مجالات معرفية وحقول متنوعة، ولذلك تعدّدت تعريفاته تبعًا لاختلاف الحقول العلمية والمناهج الفكرية التي تناولته، فضلًا عن تباين الرؤى والتوجهات المعرفية للباحثين والمهتمين بدراسته، ومن ثمّ، فإنّ الوقوف على أبرز هذه التعريفات يُسهم في الكشف عن أبعاد المصطلح وتطوراته الدلالية في مختلف السياقات العلمية.

فالنّسق "مجموعة القوانين والقواعد العامة التي تحكم الإنتاج الفردي للنّوع وتمكنه من الدلالة، ولما كان النّسق تشترك في إنتاجه الظروف والقوى الاجتماعية والثقافية من ناحية، والإنتاج الفردي للنوع من ناحية أخرى، وهو إنتاج لا ينفصل هو الآخر عن الظروف الاجتماعية والثقافية السائدة، فإن النسق ليس نظامًا ثابتًا وجامدًا؛ فإنّه ذاتي التنظيم من جهة، ومتغير يتكيف مع الظروف الجديدة من جهة ثانية، أي: إنّه في الوقت الذي يحتفظ فيه ببنيته المنتظمة يغير ملامحه عن طريق التكيف المستمر مع المستجدات الاجتماعية والثقافية" (السلمي، د.ت، ص 33).

والنسق في ضوء انفتاحه على مكّون الثقافة واللغة يؤسس نظامًا من العلاقات المرجعية الخاصة والاحتمالات الإشارية اللانهائية، حيث تضحي العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية، فالأنساق الشّعرية هي نزوع إنساني عفوي يشير إلى حيز معرفي تحتله الأفكار الجمعية ويخضع الأفراد لاحتذاء نمط معين، أو أنماط معينة...، فاللغة تتورط تورطا عميقا مع السلطة سواء أكانت اجتماعية أم سياسية، ولهذه الأنساق قيمة جمالية وقيمة فكرية لا يمكن التغافل عنها" (حبيبي، 1999، ص 10).

أما التناسق في الأسلوب "فهو أن يتم تنظيم العبارات... بحيث يكون متلائما على طريقة واحدة، ونظام واحد متسق النظم، متناسب الفقرات"(عروي، 2007، ص 28).

فالنسق القرآني يتحدد بناء على مقتضيات السياق؛ لأنه "حصيلة مُقتضيات متسلسلة تفرضها وتتحكم فيها توظيفات السياق الذي ترد فيه الوحدة اللغوية، وما يقوم به -السياق- من دور أساس في إظهار معطيات المعنى المقصود من إيراد الوحدة اللغوية (اللفظة) على نحو من الأنحاء الدلالية من أجل الوصول إلى غاية الدال في الكشف عن المدلول"(عروي، 2007، ص 28).

النسق الترتيبي وعلاقته بالتناسب بين السور في الدراسات القرآنية:

يقوم مفهوم النسق الترتيبي في الدراسات القرآنية على النظر إلى القرآن الكريم بوصفه بناءً متكاملاً، ترتبط أجزاؤه بعضها ببعض بعلاقات محكمة، سواء على مستوى الآيات داخل السورة، أم على مستوى السور داخل المصحف، ومن ثم فإن ترتيب الآيات والسور لا يُنظر إليه على أنه مجرد ترتيب شكلي، وإنما هو نظام مقصود يكشف عن وحدة البناء القرآني، ويبرز ما بين أجزائه من تناسب واتساق في المعاني والمقاصد، وهو ما شكَّل أحد المحاور الرئيسة في مباحث علوم القرآن، ولا سيما علم المناسبات، فـ" افْتِتَاح سُورَةِ الْحَدِيدِ بِالتَّسْبِيحِ فَإِنَّهُ مُنَاسِبٌ لِخِتَامِ سورة الواقعة من الأمر به وكافتتاح الْبَقَرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ ﴾ [البَقَرَةِ من الآية ١ الى الآية ٢] إِشَارَة إِلَى الصِّرَاطَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفَاتِحَةِ الآية ٦]، كَأَنَّهُمْ لَمَّا سَأَلُوا الْهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ قِيلَ لَهُمْ: ذَلِكَ الصِّرَاطُ الَّذِي سَأَلْتُمُ الْهِدَايَةَ إِلَيْهِ هُوَ الْكِتَابُ، وَهَذَا مَعْنًى حَسَنٌ يَظْهَرُ فِيهِ ارْتِبَاطُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِالْفَاتِحَةِ وَهُوَ يَرُدُّ سُؤَالَ الزَّمَخْشَرِيِّ فِي ذَلِكَ، وَتَأَمَّل ارْتِبَاطَ سُورَةِ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴾ بِسُورَةِ الْفِيلِ" (الزركشي، 1957: 1 / 38).

وقد ارتبط مفهوم النسق الترتيبي في التراث القرآني ارتباطًا وثيقًا بعلم المناسبات، الذي يبحث في أوجه الاتصال بين الآيات والسور، ويكشف عن الحكمة من ترتيبها، وقد عدَّ العلماء هذا العلم من أدق علوم القرآن؛ لأنه يتناول العلاقات البنائية والدلالية التي تربط أجزاء النص القرآني، ويبين أن انتقال القرآن من موضوع إلى آخر، أو من سورة إلى أخرى، يجري وفق نظام محكم يحقق وحدة الخطاب القرآني، ويُظهر جانبًا من إعجازه البياني.

يقول جلال الدين السيوطي: "عِلْمُ الْمُنَاسَبَةِ عِلْمٌ شَرِيفٌ قَلَّ اعْتِنَاءُ الْمُفَسِّرِينَ بِهِ لِدِقَّتِهِ وَمِمَّنْ أكثر فيه: الإمام فخر الدين، وقال فِي تَفْسِيرِهِ أَكْثَرُ لَطَائِفِ الْقُرْآنِ مُودَعَةٌ فِي التَّرْتِيبَاتِ وَالرَّوَابِطِ، وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي (سِرَاجِ الْمُرِيدِينَ): ارْتِبَاطُ آيِ الْقُرْآنِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ حَتَّى تكون كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مُتَّسِقَةَ الْمَعَانِي مُنْتَظِمَةَ الْمَبَانِي عِلْمٌ عَظِيمٌ لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ إِلَّا عَالِمٌ وَاحِدٌ عَمِلَ فِيهِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ ثُمَّ فَتَحَ اللَّهُ لَنَا فِيهِ فَلَمَّا لَمْ نَجِدْ لَهُ حَمَلَةً وَرَأَيْنَا الْخَلْقَ بِأَوْصَافِ الْبَطَلَةِ خَتَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ وَرَدَدْنَاهُ إِلَيْهِ" (السيوطي، 1974: 3 / 369).

ومع تطور الدراسات القرآنية، لم يعد الاهتمام مقتصرًا على بيان مناسبة الآيات، بل امتد إلى دراسة ترتيب السور في المصحف، والكشف عن علل تقديم بعضها على بعض، وما يترتب على ذلك من دلالات موضوعية وبلاغية.

ويُعدُّ ابن الزبير الغرناطي من أبرز العلماء الذين أفردوا هذا الجانب بالتأليف، حيث جعل من ترتيب السور محورًا لكتابه البرهان في ترتيب سور القرآن، وأقام منهجه على بيان أوجه الاتصال بين السور المتجاورة، وبيان أن موضع كل سورة في المصحف جاء وفق حكمة إلهية تحقق كمال النسق القرآني.

ابن الزبير الغرناطي ومكانته في الدراسات القرآنية:

اسمه وكنيته: أحمد بن إبراهيم بن الزّبير بن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن الزبير بن عاصم بن مسلم بن كعب الثّقفي، يكنى: أبا جعفر (الخطيب، 1424: 1/ 72).

مولده ونسبه: ولد ببلده جَيّان في أواخر عام سبعة وعشرين وستمئة (الخطيب، 1424: 1 / 75). وأصله: من مدينة جيّان، منزل قنّسرين، من العرب الداخلين إلى الأندلس؛ ونسبه بها كبير، وحسبه أصيل، وثروته معروفة. خرج به أبوه عند تغلّب العدوّ عليها عام ثلاثة وأربعين وستمئة، ولأبيه إذ ذاك إثراء وجدة أعانته على طلب العلم، وإرفاد من أحوجته الأزمة في ذلك الزمان من جالية العلماء عن قرطبة وإشبيلية كأبي الحسن الصائغ وغيره، فنصحوا له، وحطبوا في حبله (الخطيب، 1424: 1/54).

المكانة العلمية لابن الزبير الغرناطي:

تبوأ ابن الزبير الغرناطي منزلةً علميةً رفيعة، حتى عُدَّ من كبار علماء الأندلس، ووصفه مترجموه بأنه (العلامة، الحافظ، النحوي)، و(خاتمة المحدّثين، وصدور العلماء والمقرئين)، لما امتاز به من رسوخ في العلم، وملازمة للتدريس، وصبر على التعليم. تلقّى القراءات السبع عن أبي الحسن الساوي، وسمع الحديث عن عدد من شيوخ عصره، ثم اتجه إلى التصنيف والتحديث، وتتلمذ عليه جماعة من العلماء، وفي مقدمتهم أبو حيان.

وخلّف ابن الزبير عددًا من المؤلفات التي تعكس سعة معارفه، من أبرزها: (ملاك التأويل) في التفسير، و(الإعلام فيمن ختم به القطر الأندلسي من الأعلام)، وذيله على تاريخ ابن بشكوال، مما يبرز مكانته في علوم التفسير والحديث والتاريخ والتراجم.

ولم تكن مكانته مقصورة على الجانب العلمي، بل جمع إلى ذلك كريم الأخلاق وحسن السمت؛ فقد وصف بأنه كثير الخشوع والخشية، مسترسل العبرة، صليب في الحق، شديد على أهل البدع، ملازم للسنة، جزل، مهيب، معظم عند الخاصة والعامة، عذب الفكاهة، طيب المجالسة، حلو النادرة، لا تخل فكاهته بوقار، ولا تنقص من جلال منصبه.

كما وصفه بعض من ترجمه بأنه كان ثقة، قائمًا بالمعروف، والنهي عن المنكر، دامغًا لأهل البدع، وكانت له وقائع مع ملوك عصره، الأمر الذي يعكس ما حظي به من هيبة ومكانة علمية واجتماعية مرموقة (الخطيب، 1424: 1/ 72– 73؛ الشوكاني، د.ت: 1 / 34).

مشيخته: "تلا بالسبع على أبي الحسن الساوي، وسمع منه ومن إسحاق بن إبراهيم الطوسي بفتح الطاء، وإبراهيم بن محمد بن الكمال، والمؤرخ أحمد يوسف، وأبي الوليد إسماعيل بن يحيى الأزدي، وأبي الحسين بن السراج، ومحمد بن أحمد بن خليل السلوي وغيرهم" (الشوكاني، د.ت: 1/ 34).

تصانيفه: قال الخطيب: إن من تأليفه كتاب "صلة الصّلة لابن بشكوال، التي وصلتها بعده، وسمّيت كتابي بـ(عائد الصلة)، وافتتحت أول الأسماء فيه باسمه؛ وكتاب (ملاك التأويل، في المتشابه اللفظ في التّنزيل) غريب في معناه؛ والبرهان في ترتيب سور القرآن، وشرح الإشارة للباجي في الأصول؛ وسبيل الرّشاد في فضل الجهاد؛ وردع الجاهل عن اغتياب المجاهل، في الرد على الشّودية، وهو كتاب جليل ينبئ عن التفنّن والاضطلاع؛ وكتاب الزمان والمكان، وهو وصمة، تجاوز الله عنه (الخطيب، 1424: 1 / 73).

وفاته (الخطيب، 1424: 1/73): وتوفي بغرناطة في الثامن لشهر ربيع الأول عام ثمانية وسبعمئة، وكانت جنازته جنازة بالغة أقصى مبالغ الاحتفال، نفر لها الناس من كل أوب، واحتمل طلبة العلم نعشه على رؤوسهم، إلى جدثه، وتبعه ثناء

جميل، وجزع كبير، رحمه الله، ورثاه طائفة من طلبته؛ وممّن أخذ عنه منهم، القاضي أبو جعفر بن أبي حبل في قصيدة أولها:

عَزِيــزٌ عَلَــى الإِسْــلَامِ وَالْعِلْــمِ مَاجِــدٌ ... فَكَيْــفَ لِعَيْنِــي أَنْ يَلِــمَّ بِهَــا الْكَــرَى؟

وَمَــا لِمَــآقِيَّ لَا تَفِــيضُ شُــؤُونُهَا ... نَجِيعًــا عَلَــى قَــدْرِ الْمُصِــيبَةِ أَحْمَــرَا؟

فَــوَاللهِ مَــا تَقْضِــي الْمَــدَامِعُ بَعْــضَ مَــا ... يَجِــقُّ، وَلَــوْ كَانَــتْ سُــيُولًا وَأَبْحُــرَا

حَقِيــقٌ لَعَمْــرِي أَنْ تَفِــيضَ نُفُوسُــنَا ... وَفَــرْضٌ عَلَــى الْأَكْبَــادِ أَنْ تَتَفَطَّــرَا

المبحث الأول: منهج ابن الزبير الغرناطي في دراسة الترتيب بين السور المتوالية

المطلب الأول: كتاب (البرهان في تناسب السور) للغرناطي و أثره في التأصيل لعلم التناسب بين السور:

يكشف ابن الزبير الغرناطي عن الباعث الذي دفعه إلى تأليف كتابه البرهان في تناسب سور القرآن في مقدمته، حيث يقرر أنه لم يقف -فيما انتهى إليه علمه- على مؤلَّف مستقل يعالج التناسب بين سور القرآن وفق ترتيبها في المصحف، ويقول: "لم أر في هذا الضرب –يعني علم المناسبة- شيئًا لمن تقدم وغبر، وإنما بدر لبعضهم توجيه ارتباط آيات في مواضع مفترقات، وذلك في الباب أوضح، ومجال الكلام فيه أفسح وأرسخ، أما تعلق السور على ما ترتب في الإمام، واتفق عليه الصحابة الأعلام فمما لم يتعرض له فيما أعلم، ولا قرع أحد هذا الباب ممن تأخر أو تقدم" (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 181).

وهذا النص ينبه على مقصد الغرناطي من تأليفه، أنه وجد من سبقه وجه الارتباط بين الآيات ولم يلتفتوا إلى الارتباط بين السور فقال: "أما تعلق السور على ما ترتب في الإمام، واتفق عليه الصحابة الأعلام، فمما لم يتعرض له فيما أعلم، ولا قرع أحد هذا الباب ممن تأخر أو تقدم".

ويُفهم من هذا التصريح أن غاية ابن الزبير لم تكن مجرد جمع وجوه من المناسبات أو استنباط لطائف بلاغية، وإنما تأسيس منهج علمي يكشف عن الحكمة الكامنة وراء ترتيب السور، وإبراز ما بينها من روابط موضوعية وعناصر لغوية تؤكد إحكام البناء القرآني واتساق نظمه، وقد انطلق في ذلك من التسليم بأن ترتيب السور ترتيبٌ توقيفي، مما يقتضي أن يكون لكل سورة موضعها المقصود في سياق المصحف.

وعلى الرغم من إشارة ابن الزبير إلى أنه لم يُسبق إلى هذا الباب، فإن مراده –فيما يظهر– هو التأليف المستقل والمنهج الشامل في بيان مناسبات السور، لا نفي الإشارات الجزئية التي وردت عند بعض المتقدمين، فلا يخفى تنبيه العلماء على الحكمة في ترتيب بعض السور، وهي اجتهادات متفرقة لم تستوعب جميع السور؛ لذلك فإن كتابه يُعد أول عمل متكامل أفرد هذا الفن بالتصنيف، وأرسى الأسس المنهجية التي أفاد منها من جاء بعده في دراسة التناسب بين سور القرآن الكريم.

ومهد ابن الزبير لكتابه بـ(باب التعريف بترتيب السور) وهو الأساس الذي أدار عليه كتابه وناقش فيه مسألةً أصولية دقيقة: هل ترتيب السور في المصحف توقيفي بتوقيف من النبي ﷺ أم اجتهادي من عمل الصحابة؟

وهذه المسألة لها أثر كبير في منهجه، إذ إن القول بالتوقيف يضفي على المناسبات التي يذكرها طابعًا من الإلزام، ويجعل الكشف عنها ضروريًّا لفهم مراد الله من هذا الترتيب، وقد سار ابن الزبير على أن ترتيب السور توقيفي، وأن الصحابة إنما أجمعوا على ما تلقوه عن النبي ﷺ، وهذا يدل على أن هناك حكمة وراء هذا الترتيب تستوجب الاجتهاد في استنباطها وفي توجيه العلاقات وإبراز أسرار هذا الانتظام، مما جعله يبذل جهده في توجيه هذا الترتيب وتجلية إعجازه.

يقول ابن الغرناطي: " الآثار المستفيضة والمقطوع به منها، إنما ورد ذلك في الأكثر ولم يرد فيما بين كل سورتين، ولا

شك أنه إذا بقي بعض ذلك لاجتهادهم ولو فيما بين سورتين، جرى المقول المشهور عليه وصح اعتماده، ثم إن الآثار إنما وقعت بفعل، لا بقول وأمر يحصل منه التوقيف، فإذا قد آل الأمر إلى أن تلك الآثار هي مستند اجتهادهم وأصل اتفاقهم، وهذا ما أراد مالك رحمه الله بقوله: وإنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله، وهذا القدر كاف في المقصود، والحمد لله رب العالمين" (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 187).

يكشف هذا النص عن دقة منهج ابن الزبير في معالجة قضية ترتيب السور؛ إذ لم يكتفِ بعرض الأقوال، بل ناقشها مناقشةً أصولية، وقرر أن النصوص الواردة في ترتيب السور لم تستوعب جميع مواضعه، وأن ما لم يثبت فيه نص خاص يُرد إلى إجماع الصحابة القائم على التلقي عن رسول الله ﷺ، لا على مجرد الرأي والاجتهاد.

ومن ثمَّ، تبنى ابن الزبير موقفًا يثبت الأصل التوقيفي لترتيب السور، مع تفسير ما لم يرد فيه نص في ضوء إجماع الصحابة المستند إلى السماع، مستدلًا بقول الإمام مالك: إنما ألَّفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله، وبذلك لا يجعل إجماعهم إنشاءً لترتيب جديد، وإنما تثبيتًا لما تلقوه عن النبي ﷺ.

وتبرز أهمية هذا الأصل في كونه الأساس الذي أقام عليه ابن الزبير نظريته في التناسب بين السور؛ إذ يرى أن البحث عن حكم ترتيبها لا يستقيم إلا إذا كان هذا الترتيب مقصودًا، ومن ثمَّ نظر إلى ترتيب المصحف بوصفه جزءًا من النظم القرآني المعجز، وأن الكشف عن المناسبات بين السور إنما هو كشف عن جانب من إحكام هذا الترتيب ومقاصده.

المطلب الثاني: الأصول المنهجية عند الغرناطي في دراسة التناسب بين السور المتوالية

جاءت دراسته للتناسب وفق أصول منهجية تضبط توجيه التعالق بين السور المتوالية وتكشف عن وجه الحكمة والإعجاز في ذلك النسق بمنهج عميق ومرتكزات واضحة تتبصر في مقاصد السور، وتبعث المعاني الجامعة بينها، ويمكن إجمال تلك الأصول في الآتي:

أولاً: عناية الغرناطي بتحديد المقصد الأم في السورة

يعد تحديد جذر المعنى في السورة أمرا شاقا يتطلب تتبعا للأغراض بتنوعها وتفريعاتها ثم ردها إلى نبع واحد وقضية كلية واحدة، فيجعل السورة كلاماً متفقا يصب في غرض واحد ينمو من تلك الفروع ثم يعود ليغذي دلالة المقصد ويزيد في بيانه، وهذه منهجية صارمة في تنظيم الأغراض المتنوعة والتأليف بين المعاني لتلتف حول مقصد كلي هو محور السورة.

وقد حرص الغرناطي على توصيف المقصد الكلي لكل سورة قبل ربطها بالسورة التي تليها؛ لأنه أصل في الوصل بين السور وجمع معاقد السورتين، ومن أمثلته ما ذكره في سورة النساء وتحديد مركزية المعنى في السورة يقول: "بناء هذه السورة على التواصل والائتلاف ورعي حقوق ذوي الأرحام، وحفظ ذلك كله إلى حالة الموت المكتوبة علينا وناسب هذا المقصود من التواصل والألفة ما افتتحت به السورة من قوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ بالالتئام والصلة، ولهذا خصت حكم التشاجر بين الزوجين بالإعلام بصورة الإصلاح والعدل اتقاء لذلك التواصل، فلم يكن الطلاق ليناسب هذا فلم يقع له ذكر ولا إيماء ..." (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 199، 200).

فأغراض السورة تلتقي عند مقصد محوري يجمعها وهو التواصل ورعي حقوق الأرحام، فاستوفت ما اتصل بهذا الغرض وما دخل فيه من حقوق وأحكام من نكاح ومواريث والإصلاح في حال التشاجر؛ ولم يذكر فيها الطلاق مع أنه داخل في أحكام النساء لسبب يتعلق بغرض السورة وهو التواصل، وهذا فقه واعٍ بمقاصد السورة وطريقة إدارة تلك الأغراض، وفق نسق واحد وإقصاء ما لا يتصل بالغرض، فإقصاء هذه المعاني التي لا تناسب الغرض يحقق مقاصد السورة وهو قرينة يستدل بها على المقصد ويرجحه به، وجاء ذلك أيضا في تحقيق

مقصد سورة الأنفال التي دارت على معنى رئيس وهو التنبيه على أن المؤمن لا ينبغي أن يتعلق بأعراض الدنيا من نفل وغيره لأنها تدخل عليه الضرر(ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 217).

ثم أكد الغرناطي هذا المعنى بملاحظة إخراج ما لا يتطابق معه مع أن الآيات تقتضيه يقول: "ولم يقع التصريح بخير الدنيا الخاص بها مع اقتضاء الآية إياه تنزيها للمؤمن- في مقام إعطاء الفرقان وتكبير السيئات- عن ذكر متاع الدنيا والتي هي لهو ولعب، فلم يكن ذكر متاعها الفاني ليذكر مفصلا مع ما لا يجانسه ولا يشاكله " (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 217).

والغرناطي اتخذ منهجية دقيقة في تتبع غرض السورة لما يترتب على استنباطه من إحكام النسق مع السورة التي تليها، ويمكن ذكر صورتين لطريقته في ضبط المقصد والاستدلال على المعنى الأم نذكر منها صورتين:

الصورة الأولى: الاستدلال على المقصد من خلال فاتحة السورة وخاتمتها:

تتضمن الفاتحة والخاتمة مضامين السورة ومقاصدها الأساس وهما أصلان ينبثان عن مقصد السورة؛ لذلك عُني المفسرون بالنظر إليهما في اقتناص غرض السورة، والغرناطي استدل على المقصد الكلي للسورة من خلال الالتفات إلى مفتتح السورة، فسورة غافر "تضمنت بيان حال المعاندين وجاحدي الآيات. وأن ذلك ثمرة تكذيبهم وجدلهم وكان بناء السورة على هذا الغرض بدليل افتتاحها، وختمها ألا ترى قوله تعالى:﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وتأنيس نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله ﴿فَلَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾... ثم أعاد تنبيههم فقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ إلى ختام السورة، ولم يقع من هذا التنبيه الذي دارت عليه –أي: هذه السورة- في سورة الزمر ولا من تكرار التحذير من تكذيب الآيات"(ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 294-295).

فاستدل على غرض السورة من توالي الآيات في ذكر الجاحدين للآيات، وتأمل قوله: "كان بناء السورة على هذا الغرض بدليل افتتاحها وخدمها"(ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 295) وتابع كل الآيات التي تصب في معنى جحود الآيات والكفر بها وكيف سعى هذا بناء السورة، ثم وضح القرنية التي استدل بها على الغرض، وهو ما جاء في فاتحة السورة وخاتمتها، كل هذا دراسة لنسق الترتيب الذي تلتحم به الأغراض وتلتقي عنده في مقصد كلي يمثل بنية السورة أو كما قال: (بناء السورة).

الصورة الثانية: الاستدلال على المقصد الأم ن افتتاح السورة التالية:

يفتتح الغرناطي تحليله لترتيب السورة باستحضار مقاصد السورة السابقة لها فيكشف عن مركزية تلك السورة ومغزاها من أجل أن يجمع ويؤلف بين السورتين فيستدعي المقصد الكلي ويفتح من خلاله قناة تغذي مقاصد السورة التالية.

وهذا يكثر في كتابه حتى يكاد يكون مدخلا لكل السور، ونذكر من أمثلته ما ورد في سورة لقمان حيث صدّرها بتركيز معاني سورة الروم ومقاصدها قال: "لما تكرر الأمر بالاعتبار والحض عليه والتنبيه بعجائب المخلوقات في سورة الروم كقوله: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۚ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ (آية: 8) وقوله: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ (آية: 9) وقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ (آية: 11) وقوله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ ﴾إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ وهي عشر آيات تحملت من جليل الاعتبار والتنبيه ما لا تبقى معه شبهة ولا توقف لمن وفق إلى ما بعد هذا من آيات التنبيه وبسط الدلائل، وذكر ما فطر عليه العباد وضرب الأمثال الموضحة سواء السبيل لمن عقل معانيها وتدبر حكمها إلى قوله: ﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ ﴾ (آية: 58) وهي إشارة إلى ما أودع الله كتابه المبين من مختلف الأمثال

وسني العظات، وما تحملت هذه السورة من ذلك، أتبع سبحانه ذلك بقوله الحق: ﴿الٓمٓرٰ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ (آية: 1-2) أي: دلائله وبراهينه لمن وفق وسبقت له الحسنى وهم المحسنون الذين ذكرهم بعد، ووصف الكتاب بالحكيم يشهد لما مهدناه (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 275).

فسورة الروم محورها التنبيه على عجائب الخلق في السماوات والأرض وجليل الآيات وعظيم الدلائل مما لا يبقى معه إنكار من تفكر، وأكد الغرناطي ذلك المقصد لسورة الروم بقرينة ما جاء في افتتاح سورة لقمان: ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ فوصفه بالحكمة يشهد بأنه وصف عائد إلى ما جرى من آيات ودلائل عرضتها سورة الروم.

فنص الغرناطي بيان لموقع الافتتاح من مقاصد السورة السابقة فمن خلال افتتاح سورة لقمان استحضر معاني سورة الروم وأجملها ثم بنى عليها مقاصد سورة لقمان.

ثانيا: قياس نسق السورعلى نسق الآيات:

من الأصول المنهجية المحكمة عنده أنه يجعل النسق القرآني قانونا واحدًا، فيجري القوانين والاعتبارات التي يخضع لها النسق الداخلي للسورة -في ترتيب آياتها- على النسق الخارجي بين السور فيجعل انتظام الآيات أصلاً يحتكم إليه في تفسير انتظام تعاقب السور وتواليها.

فهو ينظر إلى القرآن الكريم بوصفه بناء واحدا، تتحد فيه قوانين التأليف والترتيب على مستوى الآية والسورة، والسور جميعاً، فسورة المجادلة جاءت بعد الحديد على نحو يشبه انتظام آيات في سورة البقرة، وذكر مشابهة النسق في قوله: "لما نزه (سبحانه) نفسه عن مقول الملحدين وأعلم أن العالم بأسره ينزهه عن ذلك بألسنة أحوالهم لشهادة العوالم على أنفسها بافتقارها لحكيم أوجدها لا يمكن أن يشبه شيئا منها بل يتنزه عن أوصافها ويتقدس عن سماتها فقال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ومضت الآي تعرف بعظيم سلطانه وعلي ملكه، ثم انصرف الخطاب إلى عباده في قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى ما بعد ذلك من الآي، وكان ذلك ضربا من الالتفات الواقع هنا أشبه شيء بقوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الفقرة، فإنه بعد تفصيل حال المتقين وحال من جعل في طرف منهم، وحال من تشبه بظاهره بالمتقين وهو معدود في شرار الكافرين، فلما تم هذا النمط عدل بعده إلى دعاء الخلق إلى عبادة الله وتوحيده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ (البقرة: 21) ثم عدل بالكلام جملة وصرف الخطاب إلى تعريف نبيه عليه الصلاة والسلام ببدء الخلق: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ (البقرة: 30) فجاء ضربا من الالتفات فكذا الواقع هنا بيّن سبحانه حال مشركي العرب وقبح عنادهم وقرعهم ووبخهم في عدة سور غالب آيها جار على ذلك ومجرد له.." (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 330، 331).

ففي سورة البقرة بدأ الخطاب بدعوة عامة إلى عبادة الله وتوحيده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ فِي..﴾ ثم انتقل إلى قصة خلق آدم وخطاب الملائكة، و﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وهذا الانتقال ليس انتقالا عشوائيا وإنما هو انتقال من الدعوة الإجمالية إلى التعريف بأصل الخليقة وبدء التكليف أي من المقصد العام إلى ما يؤسسه ويبين حكمته.

ويرى الغرناطي أن النسق نفسه وقع بين سورتي الحديد والمجادلة فسورة الحديد كثرت فيها الدعوة إلى الإيمان والتسبيح والإنفاق وبيان سنن الله، فلما استقر هذا المقصد جاءت سورة المجادلة لتنتقل إلى تفصيل الأحكام العملية التي يلتزم بها المؤمنون، ولهذا قال: "وجرت سورة المجادلة على هذا المقصد مصرفاً خطابها إلى نازلة يتشوف المؤمنون إلى تعرف حكمها وهو الظهار .....فلم يعدل بالكلام بعد كما كان قد صرف إليه في قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بأكثر من التعرض لبيان حكم من يقع منهم" (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 331).

فالغرناطي لم يوجه المناسبة بين سورة المجادلة والحديد من خلال مقصد السورتين فقط، بل استحضر نموذجا قياسيا يشابه تلك العلاقة من نسق سورة البقرة، فكما انتقل السياق داخل السورة من الدعوة الكلية إلى تفصيل ما يقتضيه ذلك من بيان أصل الخلق والتكليف، كذلك انتقل بين السورتين من الدعوة العامة للمؤمنين في الحديد إلى تفصيل الأحكام المنظمة لشؤونهم في المجادلة، فهو يقيس كيفية الانتقال في ترتيب السور على كيفية الانتقال في ترتيب الآيات لا لمجرد اتفاق المقاصد.

وقد تكرر مثل هذا الإجراء في توجيه التناسب بين السور وقياسه على الآيات حتى أصبح أصلاً منهجيا لفهم العلاقة، فحينما فسر تعلق سورة الحاقة مع ما قبلها عاد إلى سنن التأليف بين الآيات يقول في ذلك: "فسورة الحاقة جارية مجرى هذه الآي المعقب بها ذكر عناد مشركي العرب ليتعظ بها من رزق التوفيق ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ ولما ذكر حال من هلك من الأمم السالفة بسوء تكذيبهم وقبح عنادهم أتبع ذلك بذكر الوعيد الأخروي ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾، ثم عاد الكلام إلى ما بنيت عليه سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ من تنزيهه ﷺ - وتكريمه مقسماً على ذلك، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ وانتهى نفي ما يقولونه منصوصاً على نزاهته عن كل جمله منها في السورتين.. ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أي ما الذي جئت به بقول شاعر ولا بقول كاهن بل هو تنزيل من رب العالمين.... فنزه ربك وقدمه عن عظيم ما ارتكبوه" (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 346). فعبارة "جارية مجرى الآي المعقب" عبارة قياسية، حيث قاس ترتيب الآيات في سورة القارعة بعد أن ذكرت هلاك الأمم السابقة ثم عادت إلى خطاب مشركي مكة، ثم ذكر عقيبه وعظا لهم وإنذارا، فجاءت الحاقة تستأنف المعنى نفسه، فتذكر هلاك الأمم السابقة عاد وثمود ثم تعود إلى خطاب مشركي مكة وتقرر صدق القرآن الكريم والرسول عليه السلام. ويتجلى لنا الأصل المنهجي إذ لا يفسر اتصال سورة الحاقة بما قبلها ابتداء وإنما يرده إلى نسق مألوف في ترتيب الآيات فقاس بناء المعاني بين السورتين على بناء المعاني في آيات السورة الواحدة، وآلية الانتقال في النظم، فيجعل النسق الداخلي للسورة أصلاً يحتكم إليه في تفسير الترتيب بين السور، وهذا يؤكد أن النظم القرآني له قانون واحد يحكم تأليفه في جميع مستوياته، بل إن لغرناطي يضبط اتساق السور وتتابعها ويجعل له قوانين استنبطها من تلازم المعاني وتداعيها في ترتيب الآيات؛ مما يكشف عن إعجاز لا يتناهى في تأليفه وبديع ترتيبه، ويتنامى الإعجاز في التنسيق حتى تصبح السورة التالية مدرجة في خطاب ما قبلها مثل ما ذكره في سورة المدثر في أن: "ملاءمتها لسورة المزمل واضحة واستفتاح السورتين من نمط واحد، وما ابتدأت به الواحدة منهما من جليل خطابه -صلى الله عليه وسلم - وعظم تكريمه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، والأمر فيهما بما يخصه ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ وفي الآخر ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أتبعث في الأولى بقوله ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، وفي الثانية بقول ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ وكل ذلك قصد واحد وأتبع أمره بالصبر في المزمل بتهديد الكفار

ووعيدهم... وكذلك في الأخرى.... متحدة الأخرى فالسورتان واردتان في معرض واحد وقصد متحد"(ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 350-351).

فالغرناطي لا يربط المدثر بالمزمل لمجرد الاشتراك في خطاب النبي عليه السلام، وإنما يلحظ طريقة تدرج الخطاب وتناسقها مع المزمل، فحركة السياق واحدة في الافتتاح بخطاب النبي ثم تكليفه ثم أتبعه بِحثّه على الصبر ثم تهديد الكفار ووعيدهم.

وبهذا يتضح أن هناك نسقا كليا مطردا في القرآن يُحكِم تعاقب آياته وتعاقب سوره، ومن خلال معرفة هذا النسق الكلي ندرك أسرار تعاقب السور، وتناسب بعضها مع بعض وسبب ترتيبها على هذا النحو.

ثالثا: الاحتكام إلى التلازم المعنوي المطرد في تعاقب السور

يحتكم الغرناطي في تفسير تعاقب السور أحيانا إلى النظر في اقتضاء معاني القرآن بعضها لبعض من خلال ملاحظة المعاني المتلازمة واقترانها في سور القرآن، فيصحح بهذا الاقتضاء ما لم تظهر فيه مناسبة ويجليها، فالسور تتعاقب من خلال نسق معنوي يستدعي بعضه بعضاً فإذا وردت سورة فيها شدة وحزن تستدعي عقيبها تسلية، وإذا ورد في سورة تقصير من العباد وتعدٍ على حدود الله أردفه بتنزيه لله وهكذا، وهذا الأصل يضبط التأويل ويرجح سبب الترتيب بوجود نظائر مشابهة باعتبار سنن القرآن في إيراد المعاني وتلازمها.

وصرح بذلك في سورة الصف حيث قال: "افتتحت بالتسبيح لما ختمت به سورة الممتحنة من قوله: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود، وقدم الإيماء ما استوجبوا به هذا، فأتبع بالتنزيه لما تقدم بيانه، فإنه مما يعقب به ذكر جرائم المرتكبات ولا يرد في غير ذلك" (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص3340).

فالغرناطي يجعل الافتتاح بالتسبيح تنزيها لله عما ورد من أمر مستنكر وهو تولي قوم غضب الله عليهم وهذا المقام يقتضي التنزيه، فمن سنن معاني القرآن أن التسبيح يعقب به ذكر الجرائم ولا يرد في غير هذا المقام. تأمل قوله "ولا يرد في غير ذلك"، وورد مثل هذا في سورة الحشر: "افتتحت بالتنزيه لبنائها على ما أشار إليه غضبه تعالى عليهم، ....، وإنما يرد التنزيه في الكتاب إثر جريمة تقع من العباد، وعظيمة يرتكبونها، وتأمل ذلك حيث وقع" (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 333).

فهناك اعتبارات في ترتيب السور يلحظ فيها سنن ترتيب المعاني في القرآن واقترانها، وتأمل قوله: "تأمل ذلك حيث وقع "، فهذه العبارة تدل على أن الغرناطي تتبع السياقات ورصد المعاني المتلازمة وخلص إلى أن هناك قانونا كليا مطردا في ترتيب معاني القرآن ولا يمكن تأويل نظم القرآن دون إدراك ذلك القانون ومعرفة مواقع المعاني بعضها مع بعض.

ومن المعاني المتلازمة مجيء القسم في سياق الاستهزاء بالرسول - صلى الله عليه وسلم- فيقتضي التنزيه لنبيه مثل ما جاء في سورة النجم يقول الغرناطي: "لما قطع سبحانه تعلقهم بقولهم شاعر وساحر ومجنون إلى ما هزؤوا به مما علموا أنه لا يقوم على ساق.... أعقب تعالى ذلك بقسمه على تنزيه نبيه وصفيه من خلقه عما تقوله وتوهمه ضعفاؤوهم فقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ تم أتبع سبحانه هذا القسم ببسط الحال في تقريبه عليه السلام وإدنائه وتلقيه لما يتلقاه من ربه وعظيم منزلته لربه" (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 319).

والنص يظهر لنا أن تركيز الغرناطي في تفسير المناسبة ليس على اتصال الموضوعين، وإنما ينظر إلى الاقتضاء

المعنوي فلما وقع الطعن في النبي عليه السلام اقتضى تنزيهه، وهذا فقه النسق عنده، حيث يفسر تعاقب السور باعتبارها سلسلة من المعاني يترتب بعضها على بعض.

رابعاً: الوقوف على المقاطع الكبرى ومجاوزة ما انجر إليه الكلام

يعمد في تحديد مقصد السورة إلى النظر في المقاطع التي ينعقد عليها الغرض والمقصد، لا باستيعاب جميع تفاصيل السورة وأغراضها، فالغرناطي لا يتعامل مع السورة على أنها تسلسل آيات، بل يدرك أنها مقاطع كلية وتنجر إلى فروع لا يتعلق بها غرض السورة التالية لأن نقطة الالتقاء بين السور يتعلق بالمقاصد الكبرى في السورة السابقة فإذا اكتمل وصفه لمقصد السورة انتقل إلى بيان مناسبتها لما بعدها، لأن غرضه الأساس هو النسق التركيبي بين السور لا التفسير التفصيلي لآياتها. وقد كشف عن هذا وجعله شرطاً في توجيه التناسب بين السور يقول: "وما تخلل الآي المذكورات ونسق عليها مما ليس من الحكم المذكور فلاستجرار الآي إياه واستدعائه ومظنة استيفاء ذلك وبيان ارتباط التفسير وليس من شرطنا هنا، والله سبحانه يوفقنا لفهم كتابه" (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 259، 260).

فقوله: "ليس من شرطنا" برهان على أن لديه ضوابط واضحة، فيقف عند الحد الذي يحقق غرضه في بيان التناسب بين السور دون استيفاء جميع آيات السورة، أي: لا يقف عند جميع تفاصيل السورة؛ لأن تحديد مقصد السورة يكون بالنظر إلى المقطع الذي ينعقد عليه الغرض الكلي، إذاً فقوله: "ليس من شرطنا" ليس مجرد اعتذار بل إعلام بالحدود التي يقف عندها منهجه في النظر ويسهم في إدراك المقاصد الكلية، التي توجه التناسب بين السور، وهذا ما انتهجه من بدء الكتاب من سورة البقرة يتجاوز ما انجر إليه الكلام مما له صلة بغرض فرعي، ويهتم فقط بالقضايا الكبرى ذات الصلة الرئيسة بالمقصد الكلي للسورة، يقول في سورة البقرة: "وما تخلل هذه الآيات من لدن قوله: (ثم ذكر الزكاة والصيام والحج والجهاد إلى غير ذلك من الأحكام كالنكاح والطلاق والعدد والحيض والرضاع والحدود والربا والبيوع إلى ما تخلل هذه الآيات من تفاصيل الأحكام ومجملها، وقدم منها الوفاء بالعهد والصبر، لأن ذلك يحتاج إليه في كل الأعمال، وما تخلل هذه الآيات من لدن قوله: ليس البر، إلى قوله: آمن الرسول، (آية: ١٧٧-١٨٥) مما ليس من قبيل الإلزام والتكليف فلسبب أوجب ذكره والتعلق أو نسق استدعاه"(ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 194).

خامساً: إعمال الروابط اللغوية والأسلوبية في الكشف عن النسق الترتيبي بين السور

ولا يقتصر في توجيه المناسبة بين السور على وحدة المقصد فحسب، بل يوظف العناصر اللغوية والأسلوبية التي من شأنها أن تقيم علاقات نصية مع السورة السابقة فيستثمرها كقرائن تكشف عن التناسب، فيلاحظ تكرار الألفاظ والضمائر واستئناف الخطاب واتساق القسم مع غرض السورة السابقة، وتشابه التركيب وغير ذلك ليدل به على أن اتصال السور مبني على نظام بياني محكم ليس مقصورا على تقارب الموضوعات.

وليتضح ذلك نذكر بعض النصوص التي تؤكد ذلك، من مثل ما ذكره في سورة المعارج وتعلقها بالحاقة قال: "لما انطوت سورة الحاقة على أشد وعيد وأعظمه، أتبعت بجواب من استبطأ ذلك واستبعده، إذ هو مما يلجأ إليه المعاند الممتحن فقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾..... ثم ختمت السورة بتأكيد الوعيد وأشد التهديد﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ ﴾ إلى قوله ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ ذلك يوم الحاقة ويوم القارعة"(ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 346).

المبحث الثاني: وجوه التعالق والارتباط بين السورعند الغرناطي

المطلب الأول: الوحدة النصية وارتباط السورفي ضوء المقاصد القرآنية

يقصد بالوحدة النصية أن ينتظم النص القرآني في بناء متكامل، بحيث تتجه عناصره المختلفة إلى تحقيق مقصد جامع، فتتكامل المعاني والألفاظ والصور والإيقاعات في تشكيل نسيج واحد تتآزر أجزاؤه لإبراز هذا المقصد، سواء على مستوى السورة الواحدة أم في العلاقات القائمة بين السور (أبو زيد، 1992، ص 373).

فلم يكن مفهوم الوحدة النصية في القرآن الكريم وليد الدراسات الحديثة، بل أدركه علماء التراث من خلال عنايتهم بتماسك السورة وانتظام آياتها في نسق دلالي واحد، فقد تنبّهوا إلى أن آيات السورة ليست وحدات متفرقة، وإنما تتآزر فيما بينها لتشكّل بناءً محكمًا تتساند فيه المعاني والمقاصد، بحيث تفضي كل آية إلى ما بعدها في ترابط يحقق وحدة السورة وانسجامها، ومن أوائل من أشار إلى هذا المعنى القاضي الباقلاني، إذ تناول السور المفتتحة بالحروف المقطعة، مبينًا أن أجزاءها تنتظم حول مقصد جامع، فقال: "كثير من هذه السور إذا تأملته فهو من أوّله إلى آخره مبنيّ على لزوم حجة القرآن، والتنبيه على وجه معجزته"(الباقلاني، 1997، ص 9).

بل إنّ الباقلاني جعل هذا الترابطَ الواضح بين الآيات والأجزاء داخل السورة القرآنية دلالةً على الإعجاز والبلاغة، فقال عنه: "إنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه"(الباقلاني، 1997، ص 35)، فهذا الوصف البديع الذي وصف به الباقلانيُّ القرآنَ الكريم كان من أسبابه مدى الارتباط، والائتلاف، والتناسب، والتناسق بين الآيات، "فالقرآن على اختلاف فنونه، وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة، يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب، تبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف"(الباقلاني، 1997، ص 70).

ومع تطور الدرس التفسيري والبلاغي، ازداد اهتمام العلماء بالكشف عن وجوه الارتباط والتناسب بين آيات القرآن الكريم وسوره، حتى غدا هذا الموضوع علمًا مستقلًا أفردوه بالتصنيف والبحث. ومن أبرز من أسهم في ترسيخ هذا الاتجاه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، الذي ألّف كتابه (البرهان في تناسب سور القرآن)، متناولًا فيه العلاقات الجامعة بين السور وأوجه انتظامها.

ثم جاء بدر الدين الزركشي، فخصّص في كتابه (البرهان في علوم القرآن) فصلًا لعلم المناسبة، تناول فيه وجوه التناسب بين الآيات والسور، كما أبرز ما تقوم عليه السورة من وحدة في البناء، وما يربط بين فواتحها وخواتيمها من انسجام دلالي وبلاغي، وتُوِّجت جهود المتقدمين في هذا المجال بعمل الإمام إبراهيم بن عمر البقاعي، الذي ألّف كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، وهو من أوسع المصنفات وأشملها في هذا الفن، حتى عُدَّ أشهر مؤلفاته، وأسهم إسهامًا كبيرًا في تقعيد علم المناسبة وترسيخ أصوله في الدراسات القرآنية(عطيف، 2016، ص 488، 490).

وفي العصر الحديث تجدد الاهتمام بدراسة التناسب بين الآيات والسور، واتجهت جهود الباحثين إلى إبراز ما يقوم عليه النص القرآني من وحدة بنائية وتماسك دلالي، فأصبحت قضية الوحدة الموضوعية للسورة من أبرز القضايا التي تناولها الدرس التفسيري المعاصر.

ويُعدّ الإمام محمد عبده من أوائل من أبرز هذا المفهوم في التفسير الحديث، إذ جعل الوحدة الموضوعية للسورة أصلًا من الأصول التي يقوم عليها منهجه التفسيري، مؤكدًا أن آيات السورة تنتظم حول مقصد جامع يربط أجزاءها ويحقق

انسجامها، ثم سار على نهجه تلميذه محمد رشيد رضا، وتابع هذا الاتجاه عدد من علماء التفسير والباحثين المعاصرين، الذين وسّعوا البحث في قضايا الوحدة النصية والتناسب بين الآيات والسور، وأبرزوا أثرها في الكشف عن البناء المحكم للنص القرآني(شحاته، 1976، ص 4، 5).

ولم يقتصر اهتمام الباحثين المعاصرين على تقرير مبدأ الوحدة الموضوعية للسورة، بل اتجهوا إلى تعميق هذا المفهوم وبيان أبعاده، مؤكدين أن السورة القرآنية تقوم على وحدة محكمة تتلاحم فيها الآيات والأجزاء تلاحمًا يجعلها بناءً متكاملًا، ومن ثم فإن الوحدة لا تقتصر على مجرد وجود روابط جزئية أو مناسبات بين المعاني والأفكار، وإنما تتمثل في نظام كلي تنتظم في إطاره السورة بأسرها، حيث تتآزر بدايتها وموضوعاتها وخاتمتها لتحقيق مقصدها العام وإبراز رسالتها، فيغدو كل جزء منها مؤديًا وظيفته في خدمة البناء الكلي للسورة، بما يكشف عن إحكام النظم القرآني ووحدة نسقه(عطيف، 2016، ص 235).

وقد عني الغرناطي ببناء السورة القرآنية وإحكامها وترابط مقاصدها عناية بالغة فتوافر على دراسة هذا الجانب في كتابه (البرهان في تناسب القرآن) وكشف عن وحدة النسق القرآني مقاصدا وموضوعا وبنية تركيبية، ومن شواهد هذه العناية تحليله لعلاقة مجموعة من السور، إذ يقول ابن الزبير الغرناطي: لما تضمنت سورة البقرة ابتداء الخلق وإيجاد آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، وأعقبت بسورة آل عمران لتضمنها مع ما ذكر في صدرها أمر عيسى عليه السلام وأنه كمثل آدم في عدم الافتقار إلى أب،... فكان سائر الحيوان لا يتوقف على أبوين، أو كان يكون عيسى عليه السلام لا يتوقف إلا على أم فقط، أعلم سبحانه أن من عدا المذكورين عليهم السلام من ذرية آدم سبيلهم سبيل الأبوين فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النِّسَاء الآية 1] ثم أعلم تعالى بكيفية النكاح المجعول سببًا في التناسل وما يتعلق به، وبيّن حكم الأرحام والمواريث، وتضمنت السورة ابتداء الأمر وإنهاءه..." (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 199).

يكشف هذا النص عن أحد أبرز مظاهر التناسب بين السور المتجاورة عند ابن الزبير، إذ يجعل افتتاح سورة النساء امتدادًا دلاليًا لما انتهت إليه سورتا البقرة وآل عمران؛ فبعد أن عرضت البقرة أصل الخلق بذكر آدم عليه السلام، وبيَّنت آل عمران خصوصية خلق عيسى عليه السلام، جاءت سورة النساء لتقرر القاعدة العامة في تناسل البشر، وتبني عليها ما يتصل بأحكام الأسرة والأنساب والمواريث، وبهذا يغدو ترتيب السور قائمًا على تدرج موضوعي محكم، تنتقل فيه المعاني من قضية إلى أخرى انتقالًا طبيعيًا، بما يحقق الوحدة النصية بين السور المتجاورة، ويجعل كل سورة متممة لما قبلها وممهدة لما بعدها.

وسنقف في هذا المطلب على مقاصد القرآن الكبرى وكيف تجلت فيها وحدة البناء من خلال تحليل ابن الزبير والتأليف بين تلك المقاصد على اختلاف مواقعها في القرآن الكريم:

أولاً: السورذات المقاصد العقدية:

المقاصد العقدية هي:"ما يهدف الشارع الحكيم إلى تحقيقه من سلوكيات عملية ومنهجية من وراء تشرب العقائد الإيمانية بما يرجع بصلاح العاجل والآجل على الفرد المؤمن" (بوطيب، 2013، ص 30)، وهي " كافة الأغراض والأسرار التي يرمي الشارع إلى تحقيقها عند كل ركن من أركان العقيدة الإسلامية، أو هي المعاني والأهداف الظاهرة للعقيدة في كافة أبوابها وأركانها، وكل جزء من أجزائها"(الخادمي، 2001، ص 16)، أو هي "الأغراض والأسرار العقدية التي يرنو الشارع إلى تحقيقها عند كل ركن من أركانها"(الزايدي، 2011، ص 23).

ومن ذلك قول ابن الزبير الغرناطي: "لما بنيت سورة (ص) على ذكر المشركين وعنادهم وسوء ارتكابهم واتخاذهم الأنداد والشركاء ناسب ذلك ما افتتحت به سورة الزمر من الأمر بالإخلاص الذي هو نقيض حال من تقدم وذكر ما عنه يكون وهو الكتاب، فقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزُّمَر من الآية ١ الى الآية ٣]، وجاء قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الزُّمَر الآية ٣] في معرض أن لو قيل: عليك بالإخلاص ودع من أشرك ولم يخلص فسترى حاله وهل ينفعهم اعتذارهم بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر الآية ٣]، وهؤلاء هم الذين بنيت سورة (ص) على ذكرهم، ثم وبخهم الله تعالى وقرعهم فقال لهم: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [الزُّمَر الآية ٤]، فنزه نفسه عن عظيم مرتكبهم بقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزُّمَر: 4]" (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 291).

يتجلّى من هذا النص أن ابن الزبير الغرناطي لا ينظر إلى التناسب بين سورتي ص والزمر على أنه مجرد اتصال لفظي أو تعاقب موضوعي، وإنما يربطه بالمقصد العقدي الجامع الذي تنتظم في إطاره السورتان، فقد انتهت سورة ص إلى عرض مواقف المشركين القائمة على الشرك والعناد واتباع الأنداد، فجاء افتتاح سورة الزمر تقريرًا للمبدأ الذي يقابل تلك الانحرافات العقدية، وهو إخلاص الدين لله تعالى، فجاء الأمر بالإخلاص عقب تصوير مظاهر الشرك؛ ليكون بمثابة الجواب العملي والعقدي عن القضية التي عالجتها السورة السابقة، ومن ثم فإن العلاقة بين السورتين تقوم على الانتقال من بيان فساد العقيدة إلى تقرير العقيدة الصحيحة، وهو انتقال يخدم وحدة المقصد القرآني في ترسيخ التوحيد وإبطال الشرك.

ويكشف هذا المثال أن ابن الزبير يجعل المقصد العقدي هو الأساس الذي تُبنى عليه مناسبة السور، فلا يقف عند حدود التشابه في الألفاظ أو تقارب الموضوعات، وإنما ينظر إلى السور باعتبارها حلقات متكاملة في بناء قرآني واحد، تتضافر فيه المقاصد الكبرى لخدمة أصل التوحيد، الذي يعد المحور الرئيس في السور المكية، ولذلك جاءت سورة الزمر استكمالًا لما بدأته سورة ص، إذ انتقلت من عرض انحراف المشركين إلى تقرير حقيقة الإخلاص لله، ثم نقض شبهاتهم وإبطال حججهم، بما يحقق وحدة البناء العقدي بين السورتين، ويؤكد أن التناسب عند ابن الزبير يرتكز على تتابع المقاصد الكلية للسور أكثر من ارتكازه على مجرد الاتصال الموضوعي الجزئي.

ثانيًا: السورذات المقاصد المتعلقة بالعبادات

العبادات "هي جملة الأقوال والأعمال التي يقوم بها المكلف بكيفية مخصوصة على سبيل التقرب إلى الله تعالى والامتثال والانقياد والخضوع إليه، والعبادات محددة ومبينة إجمالًا وتفصيلًا، تم ضبطها وبيانها وتفصيلها وشرحها في نصوص القرآن الكريم، وفي السنة النبوية القولية والفعلية والإقرارية، وهي ثابتة وباقية ودائمة إلى يوم القيامة"(الخادمي، 2001، ص 166).

ومن أمثلة التعبد إلى الله يقول ابن الزبير: " فلهذا كانت سورة يونس عليه السلام مضمنة من هذا ما لم يضمن غيرها، ألا ترى افتتاحها بقوله: "﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يُونُس الآية ٣]، ومناسبة هذا الافتتاح دعاء الخلق إلى الله

في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البَقَرَة الآية ٢١]" (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 224).

يكشف هذا النص عن إدراك ابن الزبير لوحدة البناء المقاصدي بين السور؛ إذ ربط افتتاح سورة يونس بالأمر بعبادة الله تعالى بقوله: ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾، بالنداء العام في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، ليدل على أن مقصد العبادة يمثل محورًا جامعًا بينهما، وقد جاء البناء البلاغي في سورة يونس قائمًا على تقديم دلائل الربوبية من الخلق والتدبير، ثم ترتيب الأمر بالعبادة عليها، وهو ترتيب يُبرز التلازم بين البرهان والتكليف. ومن ثم تتجلى وحدة البناء بين السورتين في خدمة مقصد قرآني كلي يتمثل في توحيد الله وإفراده بالعبادة.

وفي مثال آخر يقول ابن الزبير: "فاتخذوا وقاية من العذاب خوف ربهم وتقواه بامتثال أمره ونهيه، ثم أشير من الأعمال إلى ما يستحق سائرها من قبيلي البدنيات والماليات بيانا للصراط المستقيم فقيل في وصف المتقين إنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البَقَرَة الآية ٣]، وحصل من هذا حصر الفعل والترك الضابطين لجميع الأعمال كيفما تشعبت، في مهد التفسير عند ضم ما ورد هنا، إلى قوله: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ [العَنكَبُوت الآية ٤٥]" (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 190).

يكشف هذا النص عن منهج ابن الزبير في إبراز وحدة البناء المقاصدي بين السور؛ إذ ربط بين وصف المتقين في سورة البقرة، القائم على إقامة الصلاة والإنفاق، وبين قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾، ليبين أن العبادات ليست أعمالًا متفرقة، وإنما تنتظم في مقصد قرآني واحد يتمثل في تحقيق التقوى وإصلاح السلوك، ويقوم هذا الربط على بناء بلاغي يجمع بين الأمر بالعبادة وبيان آثارها التربوية، مما يكشف عن تآزر السور في خدمة مقصد كلي، ويؤكد وحدة البناء القرآني القائمة على تكامل المقاصد وترابطها.

المطلب الثاني: أنماط العلاقات في ترتيب السور بعضها على بعض:

أولا: وقوع السورة اللاحقة موقع التكميل لمقاصد السورة السابقة

وهذا النوع يتوزع فيه المعنى بين سورتين أو أكثر فتذكر إحداهما جانبا من المعنى ثم تأتي الأخرى لتستوفيه أو تضيف إليه ما يحقق المقصد، فيتكون من مجموع الصورتين بنية مكتملة، نحو موقع سورة الدخان من مجموع سور قبلها يقول في وجه تعلقها:

"لما تضمنت سورة حم السجدة وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما أشير إليه مما لم تنطو سورة غافر على شيء منه وحصل من مجموع ذلك الإعلام بتنزيله من عند الله وتفصيله وكونه قرآنا عربيا إلى ما ذكر تعالى من خصائصه إلى قوله:

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ (الزخرف: 44) وتعلق الكلام بعد هذا بعضه ببعض إلى آخر السورة، استفتح تعالى سورة الدخان بما يكمل ذلك الغرض وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا" (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 302).

وهذا النص يقرر أن السورة اللاحقة وهي الدخان جاءت لتكمل الغرض وصرح بهذا الموقع بقوله: واستفتحت سورة الدخان بما يكمل ذلك الغرض، فهناك وظيفة ومقام لكل سورة في سياق ما قبلها، فسورة الدخان عرفت بوقت إنزال

الكتاب، فأكملت بيان ما قبلها، وابن الزبير لا يكتفي بالوقوف على مقاصد السورة السابقة لها، بل يبحث عن جذر الغرض والسورة التي بدأ منها هذا الغرض فيجد أن الغرض تحدر من مجموعة سور فيذكرها ثم يقف على اكتماله عند سورة معينة، وهذا النظرة وطريقة التتبع للمقاصد وترتيبها بين السور هو أشبه بتفسير الاتساق.

لذلك لم يقف على مجرد إظهار العلاقة، بل إبراز موقع السورة من السورة وأن الاعتبار في ترتيب السور هو النظر والاعتبار بالغرض:

"وتقدم الأهم في ذلك في السورتين قبل، وتأخر التعريف بوقت نزوله إذ ليس في التأكيد كالمتقدم، ثم وقع إثر هذا تفصيل وعيد قد أجمل في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ (الزخرف: 89) وما تقدمه من قوله (تعالى): ﴿ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴾ (الزخرف: (79) ....." (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 302).

فكشف عن حكمة هذا الترتيب، وعلل لتأخر الحديث عن وقت النزول للقرآن بأن التقديم للأهم وهو الإعلام بنزوله من عند الله وكونه عربيا وتأخر التعريف بتوقيت النزول إذ ليس في التأكيد كالمتقدم فيجعل من بين السور من ترتيب مثل الجملة الواحدة في تقدم الأهمّ وهو ما قرره عبد القاهر نقلا عن سيبويه أنهم "يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم"(الجرجاني، 1413، ص 107).

ثانياً: وقوع السورة موقع التعليل والسببية للسورة السابقة

يعتمد ترتيب السور أحيانا على علاقة منطقية تكون فيه السورة سببا أو نتيجة أو علة تولدت من السورة قبلها، فتقع منها موقع الجملة من الجملة، نذكر من ذلك ما جاء في العلاقة بين سورة محمد وسورة الأحقاف: "لما انبنت سورة الأحقاف على ما ذكر من مآل من كذب وكفر، وافتتحت السورة بإعراضهم، ختمت بما قد تكرر من تقريعهم وتوبيخهم فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡۦِيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ ﴾ (آية: (33) أي: لو اعتبروا بالبداءة لتيسر عليهم أمر العودة، ثم ذكر عرضهم على النار إلى قوله: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (الآيتان:٣٤-٣٥) فلما ختم بذكر هلاكهم، افتتح السورة الأخرى بعاجل ذلك اللاحق لهم في دنياهم فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ وَءَامَنُواْ .. ﴾ الآية (آية: 4) بعد ابتداء السورة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ (آية: 1) فنبه على أن أصل محنتهم إنما هو بما أراده تعالى بهم في سابق علمه ليعلم المؤمنون أن الهدى والضلال بيده....." (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 306-307).

الترتيب بين السور يقوم على علاقة منطقية؛ فمن خلال النص يتبين أن الانتقال من سورة محمد إلى سورة الأحقاف تسلسل سببي في بناء المعاني، فسورة الأحقاف قررت حال المكذبين وأقامت الحجة عليهم ﴿ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾٣٤-٣٥، وعلل ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِلَىٰ .. ﴾، فجاءت سورة محمد لتبين ما يترتب على ذلك من أحكام وعقوبات، فكانت تعليلاً لما آل إليه وهو ما قررته السورة السابقة من معان.

فالصلة بين السورتين تقوم على رابطة السببية فكانت السورة اللاحقة كاشفة عن العلل المترتبة على ما قررته السورة السابقة.

ثالثاً: إيقاع السورة موقع دفع توهم أثارته السورة السابقة

ومن أنماط التعالق بين السور عند ابن الزبير أن تأتي السورة اللاحقة لإزالة ما يتوهم من معان يثيرها ظاهر السورة السابقة، فتدفع الإشكال، أو تستدرك معنى يسبق إلى الذهن ولا يكون مرادا من الكلام، وبذلك يؤول الترتيب بين السور إلى وسيلة إبانة ويعمل على إحكام النسق الدلالي بين السور المتوالية ومن أمثلته ما جاء في تأويل افتتاح سورة طه وتعلقه بسورة مريم، يقول: "لما ذكر سبحانه قصة إبراهيم وما منحه وأعطاه وقصص الأنبياء بعده بما خصهم به، وأعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ (مريم: 58) وكان ظاهر هذا الكلام تخصيص هؤلاء بهذه المناصب العالية والدرجات المنيفة الجليلة لا سيما وقد أتبع ذلك بقوله ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (مريم: 59) كان هذا مظنة إشفاق وخوف فأتبعه تعالى بملاطفة نبيه (محمد) صلى الله عليه وسلم ملاطفة المحبوب المقرب المجتبى.." (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 352-353).

ختمت سورة مريم بذكر اصطفاء إبراهيم عليه السلام والأنبياء ومنزلتهم الرفيعة، فكان ظاهر هذا الكلام، اختصاصهم بهذه المنزلة فأتبعها بملاطفة نبيه محمد عليه السلام.

وتأمل قوله "لئلا يتوهم" و"فأتبع ذلك"، و"كان مظنة"، فهي ألفاظ تدل على أن الغرناطي يلحظ الترتيب والتعقيب وأن المعاني تتشكل من رد السورة إلى السورة.

ومنه أيضا سورة الأسراء فقد دفعت توهما تولد من ظاهر سورة النحل يقول فيها: "لما تقدم قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا.... الآية﴾ كان ظاهر ذلك تفضيل إبراهيم عليه السلام على محمد وعلى جميع الأنبياء لا سيما مع الأمر بالاتباع، فأعقب ذلك بسورة الإسراء، وقد تضمنت من خصائص نبينا عليه السلام وانطوت على ما حصل من المنصوص في الصحيح والمقطوع به والمجمع عليه من أنه سيد ولد آدم فاستفتحت السورة بقصة الإسراء، وقد تضمنت حسبما وقع في صحيح مسلم وغيره إمامته بالأنبياء عليه السلام وفيهم إبراهيم وموسي..." (ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 243-244).

وتتبين هنا دقة ابن الزبير في تتبع النسق الترتيبي حيث رأى أن ختام سورة النحل بتفضيل إبراهيم عليه السلام والأمر باتباع ملته معان ينتج عنها توهم اختصاصه بهذه المنزلة، فجاءت سورة الإسراء دافعة لهذا الاحتمال، ومبطلة له فاستهلت بذكر إسراء النبي عليه السلام وإمامته بالأنبياء، و أتبعها ببيان عموم رسالته وكونه رحمة للعالمين، وكل هذه الخصائص تظهر فضل محمد - صلى الله عليه وسلم، وتنبه على أن تفضيل إبراهيم عليه السلام لا ينفي ما خص الله به محمدا عليه السلام من مناقب.

فابن الزبير يجعل سورة الإسراء مصححة لما قد يتوهم من سورة مريم ودافعة لاحتمال غير مراد.

رابعاً: وقوع السورة موقع المقابلة لمعاني السورة السابقة:

وهذا النوع من الأنماط الدقيقة يتطلب تبصرا في علاقات المقاصد، فهي ليست ظاهرة لفظية يظهر فيها التضاد وإنما تجد السورة تؤدي مقصدها تم تأتي سورة بمقصد آخر، وبمراجعة المقصد يظهر ذلك التقابل بينهما، أي هو تقابل مقاصدي.

وهذا اللون من العلاقات يحدث انسجاما بين السور، ويظهر ذلك في علاقة سورة (الزمر) بسورة (ص)، يذكر

الغرناطي أنه: "لما بنيت سورة (ص) على ذكر المشركين وعنادهم واتخاذهم الأنداد والشركاء ناسب ذلك ما افتتحت به سورة الزمر من الأمر بالإخلاص الذي هو نقيض حال من تقدم، وذكر ما عنه يكون وهو الكتاب"(ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 290).

انعقدت مقاصد سورة ص على ذكر حال المشركين وسوء اعتقادهم وافتتحت سورة الزمر بتقرير الإخلاص الله، فقابلت أصل الشرك بأصل التوحيد، فوقعت منها موقع المقابلة، أي مقابلة اعتذارهم بإبطال الشبهات، ومقابلة سوء مآلهم بذكر نجاة المخلصين.

لقد قابل الغرناطي بين معاني السورتين وأبرز التضاد والتباين بين طريق الباطل وطريق الحق فاستكمل المقاصد من خلال النسق الترتيبي للقرآن.

خامسا: وقوع السورة موقع العام بعد الخاص

من وجوه الترتيب والتنسيق بين السور أن تقع السورة اللاحقة موقع العموم بعد تخصيص، أو تخصيص بعد عموم، بحسب ما تقتضيه السورة من مقاصد، فيتحقق البناء الدلالي بين السور المتوالية وتحكم علاقاتها، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن الزبير من علاقة سورة القمر مع الرحمن يقول: "فلما انطوت هذه السورة على ما ذكرنا، وبان فيها عظيم الرحمة في ذكر القصص ونفع العظات، وظهرت حجة الله على الخلق وكان ذلك من أعظم ألطافه تعالى لمن يسره لتدبر الكتاب ووفقه لفهمه واعتباره أردف ذلك سبحانه بالتنبيه على هذه النعمة فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ (الرحمن: 1) وخص من أسمائه الحسنى هذا الاسم إشعارا برحمته بالكتاب وعظيم إحسانه ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ (إبراهيم: 34) ثم قد تمهد أن سورة القمر إعذار، ومن أين للعباد بجميل هذا اللطف وعظيم هذا الحلم حتى يزدادوا إلى بسط الدلالات وإيضاح البيانات أن يعذر إليهم زيادة في الإبلاغ فأنبأ تعالى أن هذا رحمة فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾) ثم إذا تأملت سورة القمر وجدت خطابها وإعذارها خاصا ببني آدم، بمشركي العرب منهم فقط فأتبعت بسورة الرحمن تنبيها للثقلين وإعذارا إليهم وتقريرا للجنس على ما أودع الله تعالى في العالم من العجائب والبراهين الساطعة فتكرر فيها التقرير والتنبيه"(ابن الزبير الغرناطي، 1990، ص 327).

يبين ابن الزبير المناسبة بين السورتين في انتقال الخطاب من الخصوص إلى العموم، فسورة القمر وجهت الإنذار إلى بني آدم ولا سيما مشركي قريش العرب ثم جاءت سورة الرحمن موسعة دائرة الخطاب إلى الثقلين الإنس والجان جميعا، ففصلت أحوالهم فكان الخاص مبنيا على العام الذي تقرر في سورة قبلها فزاد في تقريره مع التنبيه على حكم العموم.

النتائج

توصل البحث إلى عدد من النتائج، من أبرزها:

1. أن الإمام ابن الزبير الغرناطي قدّم تصورًا منهجيًا متكاملًا للنسق الترتيبي بين سور القرآن الكريم، قائمًا على النظر إلى ترتيب السور بوصفه نظامًا محكمًا تحكمه حكمة إلهية، وليس مجرد ترتيب شكلي.

2. أن كتاب البرهان في ترتيب سور القرآن يمثل مرحلة تأسيسية في التأليف المستقل في علم المناسبات بين السور، وأنه نقل هذا العلم من جمع المناسبات الجزئية إلى بناء أصول منهجية كلية تضبط تفسير العلاقات بين السور.

3. أن تحديد المقصد الكلي للسورة يمثل الأصل المنهجي الذي تنبني عليه بقية أدوات الغرناطي في تفسير النسق الترتيبي، إذ يجعل مقصد السورة منطلقًا لفهم علاقتها بما قبلها وما بعدها.

4. أن الغرناطي يعتمد جملة من الأصول المنهجية المتكاملة، من أهمها: الاحتكام إلى المقاطع الكبرى، وإعمال الروابط اللغوية والأسلوبية، وقياس النسق الخارجي بين السور على النسق الداخلي بين الآيات، والاستناد إلى التلازم المعنوي المطرد في تعاقب المعاني القرآنية.

5. أن الغرناطي لا يفسر اتصال السور من خلال تشابه الموضوعات فحسب، بل يرده إلى قوانين كلية تحكم حركة المعاني في القرآن الكريم، بما يكشف عن وحدة البناء القرآني في جميع مستوياته.

6. أن العلاقات بين السور عند الغرناطي ليست علاقات عشوائية أو متفرقة، وإنما تنتظم في صور كلية، مثل: التكميل، والتفصيل، والتقرير، والتعليل، والتقابل، ودفع التوهم، والعموم والخصوص، وغيرها من العلاقات التي تخضع لمقتضيات المقاصد والسياقات.

7. أن اعتماد الغرناطي على قياس النسق بين السور على النسق بين الآيات يعد من أبرز معالم منهجه، ويكشف عن رؤيته إلى القرآن الكريم بوصفه بناءً واحدًا تحكمه قوانين واحدة في التأليف والترتيب.

8. أن منهج الغرناطي في دراسة التناسب بين السور يتجاوز الكشف عن اللطائف البلاغية إلى تأسيس رؤية تفسيرية تبرز وحدة البناء القرآني، وتكشف جانبًا من إعجاز نظمه.

ثانيًا: التوصيات:

1-.توجيه مزيد من الدراسات إلى استقراء القوانين الكلية الحاكمة للنسق القرآني عند علماء التفسير والبلاغة، وإبراز وجوه الاتفاق والاختلاف بينهم.

2. إعداد دراسات مقارنة بين منهج ابن الزبير الغرناطي ومناهج من جاء بعده، كالبقاعي والسيوطي، للكشف عن أثر البرهان في تطور علم المناسبات.

3. تشجيع الدراسات التطبيقية التي تستثمر الأصول المنهجية للغرناطي في تحليل سور القرآن الكريم؛ بما يسهم في الكشف عن مزيد من مظاهر وحدة البناء والنسق الترتيبي في القرآن الكريم.

المراجع

الباقلاني، أ. ب. (1997). *إعجاز القرآن للباقلاني* (السيد أحمد صقر، تحقيق؛ ط.5). دار المعارف.

بو طيب، ع. (2013). *مقاصد العقائد عند الإمام العز بن عبد السلام* [رسالة ماجستير غير منشورة]، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، الجزائر.

الجرجاني، ع. (1413). *دلائل الإعجاز* (محمود شاكر، تحقيق؛ ط.3). مطبعة المدني.

حبيبي، م. (1999). *الاتصال التربوي وتدريس الأدب* (ط.1) المرجع الثقافي العربي.

الخادمي، ن. (2001). *علم المقاصد الشرعية* (ط.1). مكتبة العبيكان.

الخطيب، ل. ا. (1424). *الإحاطة في أخبار غرناطة* (ط.1). دار الكتب العلمية.

الزايدي، ا. (2011). *المقاصد العقدية في القصص القرآني*، دار الكتب العلمية.

ابن الزبير الغرناطي. (1990). *البرهان في تناسب سور القرآن* (محمد شعباني، تحقيق). وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
الزركشي. (1957). *البرهان في علوم القرآن* (محمد أبو الفضل إبراهيم، تحقيق؛ ط.1). دار إحياء الكتب العربية.
أبو زيد، أ. (1992). *التناسب البياني في القرآن الكريم: دراسة في النظم المعنوي والصوتي*، منشورات كلية الآداب؛ مطبعة النجاح الجديدة.
السلمي، ع. (د.ت). *تحليل النظم السلوكية*، مكتبة غريب.
السيوطي، ج. ا. (1974). *الإتقان في علوم القرآن* (محمد أبو الفضل إبراهيم، تحقيق). الهيئة المصرية العامة للكتاب.
شحاته، ع. (1976). *أهداف كلّ سورة ومقاصدها في القرآن الكريم*، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.
الشوكاني. (د.ت). *البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع*، دار المعرفة.
عروي، م. إ. (2007). *دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية* (ط.1). وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
عطيف، ي. ب. م. (2016). وحدة السورة القرآنية عند بعض علماء الإعجاز المعاصرين، *مجلة الجامعة الإسلامية*، (177) 228، 274
قدامة بن جعفر، نقد الشعر، الناشر: مطبعة الجوائب، قسطنطينية، الطبعة الأولى، سنة النشر: 1302هـ
ابن منظور. (1414). *لسان العرب* (ط.3). دار صادر.

References

Al-Baqillani, A. B. (1997). *The inimitability of the Qur'an* (S. A. Saqr, Ed.; 5th ed.). Dar al-Ma'arif. [Arabic]

Abu Tayeb, A. (2013). *The objectives of beliefs according to Imam al-'Izz ibn 'Abd al-Salam* [Unpublished master's thesis]. Faculty of Humanities, University of Algiers. [Arabic]

Al-Jurjani, A. (1413 AH). *The proofs of eloquence* (M. Shakir, Ed.; 3rd ed.). Al-Madani Press. [Arabic]

Habibi, M. (1999). *Educational communication and the teaching of literature* (1st ed.). Al-Markaz al-Thaqafi al-'Arabi. [Arabic]

Al-Khadimi, N. (2001). *The science of the objectives of Islamic law* (1st ed.). Maktabat al-'Ubaykan. [Arabic]

Al-Khatib, L. A. (1424 AH). *Al-Ihata fi akhbar Gharnata* (1st ed.). Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah. [Arabic]

Al-Zaidi, A. (2011). *The doctrinal objectives in Qur'anic narratives*. Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah. [Arabic]

Ibn al-Zubayr al-Gharnati, A. (1990). *The proof concerning the coherence of the Qur'anic chapters* (M. Sha'bani, Ed.). Ministry of Endowments and Islamic Affairs. [Arabic]

Al-Zarkashi, B. (1957). *Al-Burhan fi 'ulum al-Qur'an* (M. A. F. Ibrahim, Ed.; 1st ed.). Dar Ihya' al-Kutub al-'Arabiyyah. [Arabic]

Abu Zayd, A. (1992). *The rhetorical coherence in the Holy Qur'an: A study of semantic and phonetic composition*. Faculty of Arts Publications; Matba'at al-Najah al-Jadidah. [Arabic]

Al-Sulami, A. (n.d.). *Analysis of behavioral systems*. Maktabat Gharib. [Arabic]

Al-Suyuti, J. A. (1974). *Al-Itqan fi 'ulum al-Qur'an* (M. A. F. Ibrahim, Ed.). Egyptian General Book Organization. [Arabic]

Shihatah, A. (1976). *The objectives and purposes of each surah in the Holy Qur'an*. Egyptian General Book Organization. [Arabic]

Al-Shawkani, M. A. (n.d.). *Al-Badr al-tali' bi-mahasin man ba'd al-qarn al-sabi'*. Dar al-Ma'rifah. [Arabic]

'Urwi, M. I. (2007). *The role of context in determining the preferable interpretation among exegetical opinions* (1st ed.). Ministry of Endowments and Islamic Affairs. [Arabic]

'Atif, Y. B. M. (2016). The unity of the Qur'anic surah according to some contemporary scholars of Qur'anic inimitability. *Journal of the Islamic University*, (177), 228–274. [Arabic]

Qudamah ibn Ja'far, Q. (1302 AH). *Naqd al-shi'r* (1st ed.). Matba'at al-Jawa'ib. [Arabic]

Ibn Manzur, M. M. (1414 AH). *Lisan al-'Arab* (3rd ed.). Dar Sadir. [Arabic]